

زوربا بين الوجودية والاعتباطية

بقلم محمد الموصلي

دون ان يكون لهذا السقوط اي معنى تقيمي ، فكان كازانتزاي اراد ان يوضح بهذا الفرض لشخصية زوربا ايمانه بمدى جدوى السؤال عن مبدأ الوجود الانساني وتسليمه بالذواين الهيدجري او السقوط الهيدجري ، ثم لماذا لا نعتبر هذا الفرض على انه رمز يعني ان الانسان وجد صدفة على الارض - كوجود زوربا في الرواية - وبدون تقرير ؟ او لماذا لا نقول ان كازانتزاي اراد ان يعني بهذا الفرض ايمانه باللامعقولية في الوجود وبالعبثية او على الاقل بقول روكنتان - بطل الفثيان - سارتر ووجود الانسان لا مبرر .

على ان من يحاول التعليق على مثل هذا الفرض للشخصية الروائية انما ينطلق من مفاهيم الواقعية والحقيقة انسي اري ان هذا الفرض الروائي - اذا اغفلنا النظر عن كل التعليقات السابقة - انما يقرب الرواية من الحياة اكثر مما يفرها من المنطق وفسد فال روبرت لويس ستيفنسن (الحياة فظيمة رهيبه ومدومه اتحدود ولا منطقية وفضة ومؤلمة وموجعة ، اما العمل الفني فهو بالقياس اليها شيء مرتب محدود ومحيط بذاته وعقلاني ومدفق ومنفتح . ان الحياة تفرض ذاتها بقوة غاشمة كالرعد الارعن ولكن افن ، لنقل في لحن اصطنعه اصطناعا موسيقار حفيف يستأثر بالاصغاء من الاذن في غمرة الاصوات الاشد صخباً التي تحيط بتجربتنا الحياتية . ان انفضة لا تحيا بفضل اوجهه شبيها بالحياة فهذه الواجهة مفروضة ومادية مثلها في ذلك مثل الخداء الذي يجب ان يظل من الجلد ، انما تمشي بفضل ما لا يحصى من اوجهه تباينها عن الحياة ، وهذا التباين مقصود وذو مغزى ، وهو في آن واحد منهج العمل الفني ومعناه) . وهكذا نرى ان هذا الفرض يعني منسي خارجياً نستطيع ان نستشفه نحن ، واذا لم نتمتع بالرواية في فنيته على هذا التباين مع الحياة ومن ثم على المصادفة التي يقول فيها اشبنجلر (ان عالم المصادفة هو عالم الوجود الذي سيحقق ذات مرة) فما هي الطريقة اذا ؟ اتبع المنطق بحيث نعرف نهاية الرواية منذ بدايتها . والذي اعتقده ان كازانتزاي انما كان بهذا الفرض يحاول ان يمثل السقوط الهيدجري للانسان في العالم ، الوجود بلا تساؤل ، بلا لماذا وهكذا يعبر زوربا (لماذا ؟ لماذا ؟) لا نستطيع ان نفعل شيئاً دون لماذا ؟ من اجل لا شيء ، من اجل اللذة) .

الانسان حرية والحرية هي الرعب :

هكذا يعرف سارتر الانسان فيحده بالحرية ويعرف جان فال الانسان الوجودي بانه (هو المشروع الذي يرى فيه نفسه ، انه لن يكون الا فيما بعد وسيكون كما سوف يصنع نفسه ، ان الانسان هو مشروع يرى ذاته رؤية ذاتية في باديء الامر وسيكون ما سيصمم ان يكونه) ان الانسان الوجودي يملك امكانية وجود وليس وجوداً تاماً وكذلك نرى شخصية زوربا فانه وجودي لانه يعرض كامكانية وجود فهو فرد خام فرد يتقن (كل المهن بالرجل واليد والرأس كسل شيء ، ولا ينقصني الا ان اختار) هذا هو الوجود الوجودي ، انه بعد لم يتشكل في عالم المواد انه مشروع لم يتموضع في الوجود في العالم ، لم تحقق نفسه ، وبهذا ندرك ان كازانتزاي يبدأ من نقطة الصفر الوجودي ليرسم لنا ملامح بطله زوربا ثم تتضح عيشة كامو بضرب زوربا صاحب العمل بلا مبرر ولا سبب وهذا صوت كيركيغارد ينقد هيجل يأتي على لسان زوربا ينقد المعلم بقوله (كل شيء فيك يبدو لي منطقي) .

قبل ان ابدا بالكتابة عن زوربا اود ان اشير الى ان اكثر الكاتبين عن زوربا كانوا ايمد ما يكون عن المعاشة الحياتية لزوربا ولم يعطوه ابعاده الى نهايتها او لانهايتها ، فالذي يقول بان زوربا صراع بين الحسي والتجريدي - هو فاضل تامر في الادب لسنة 1965 - مخطيء في حق زوربا خطأ شنيعاً لان زوربا او رواية زوربا لم تعالج بل ولم تنطرق الى المضمون الذي اراد اخونا الكاتب ان يفرضه عليه وانما اكثر ما فعل هذا الكاتب كان اخضاعاً للرواية الى مقياس خارج وجودها ... الى مقياس لم تكن تنتمي اليه ، انما هو فرض من الخارج ... ومن الغفل - الذي يفرض زوربا منه على زوربا ، ولا ادري ما هو الداعي لهذا المقياس الذي ان لم يكن خلقياً فهو اشبه به في التزاميته . ان الحكم على الرواية بهذه الطريقة يحول الرواية الى (صير) بينما المعاشة الفنية للرواية انما تكون « صيرورة » هذا اذا استعملنا مصطلحات اشبنجلر .

والحقيقة ان الرواية - واخص زوربا - انما هي صيرورة لشخصية زوربا عبر الفنية الاتقائية له بل واستطيع ان افول ان رواية زوربا في ذاتها انما هي صيرورة تاريخية دينامية لتحقق شخصية زوربا عبر الحوادث ، وكما يقول جيته (لا يستطيع احد ان يحكم على التاريخ الا ذلك الذي اختبر التاريخ داخل نفسه) ، اما فاضل تامر فانه اولاً منتم وانتماؤه يختلف جدا عن تجربة زوربا التي اساسها الحرية والحرية الاعتباطية خاصة ، فكيف يسمح لنفسه ان يحاول فرض مقياسه الخاص الانتمائي على تجربة زوربا غير المنتمية .

والذي اريد ان اشير اليه هو هذا المرض الذي يجعل الغفل مسيطراً على كل احكامنا في جميع المجالات وكانها لم يظهر حسدس برجسون ولا وجدان اشبنجلر . على ان السيد تامر لم يعرف زوربا وانما طلب منه ان يكون معه بالانتمائه لكي يكون مفهوماً وذا معنى عند من هو مثله ، والا ألم يلاحظ قول المعلم واصفاً زوربا في الرواية ؟ (اني حين فكرت بزوربا ملياً ولم ادر ان كان علي ان اغضب او اضحك او اعجب بهذا الانسان البدائي الذي يبلغ الجوهر عن طريق تحطيم المنطق والاخلاق والصدق وهي فترة الحياة) . ألم يلاحظ اخونا الكاتب ان هذه هي طبيعة زوربا الحية وليست اقتضية فضية ضمه ألسي التجريد او الحس الانتمائي او صراعهما .

السقوط الهيدجري

في ميناء بيريه يلتقي الرئيس بزوربا ، ان هذا التوقيت واللقاء يثير مشكلة تكتيكية هامة كما يقول فاضل تامر لانه - على حد قوله - حدث بشكل غير طبيعي وغير تلقائي ، اي ان هناك ضمناً في الرواية من جهة فنيته لا لشيء الا لانها فقدت مشاكليية الواقع في هذا الفرض للبطل الروائي على الحياة الروائية ، ولكن هل هناك شيء من هذا التعارض على ادعاء الاخ فاضل ؟

نستطيع ان نعتبر فرض شخصية زوربا على هذه الطريقة ذا معنى وجودي اراده كازانتزاي ، فالذواين Dasein الهيدجري - نسبة الى هيدجر - هو الذي لا يحاول ان يسأل كيف وجدت اي ان هيدجر يسلم بوجود (الانسان في العالم) تسليمياً ساذجاً ويربط وجوده على هذا الشكل بمعنى السقوط في العالم او الوجود فيه مفروضاً وبلا تعليق من

الموت الوجودي :

يستحق ان يحققه الانسان . اما زوربا فانه حقق هذه الرؤيا التي تمنها كولين ولسن ولا زال يركض وراءها .

ان انفتاح زوربا على العالم هو الذي يلقيه بكل شبكية السي احتضان الحياة والنظر اليها بعين جديدة كل صباح ، انه يفعل حين يرى البحر ويكي فرحا . لقد كان الكون بالنسبة اليه كما عسر المعلم (لقد كان الكون بالنسبة لزوربا كما كسان لاولئك البشر ، رؤيا ثقيلة وكثيفة . فالنجوم تنساب عليه والبحر يتكسر على صدغيه وهو يعيش دون تدخل العقل المشوه ، الارض والماء والحيوانات والله) .

لقد عرف الفيلسوف الوجودي كارل يسبرز الفيلسفة او التجربة الفلسفية بانها « ممارسة لما هو في داخل وجودي ومنه ينوع تفكيري ممارسة تنشق من الحياة في اعماقها لا من سطحها حيث تسعى السي تحقيق اغراض عملية محددة » وهكذا زوربا يعيش التجربة الفلسفية معاناة وجودية فهو الذي يقول (ولما لم يكن بيني وبين حياتي عقد محدد فانني ارخي العنان عندما اصل الى اخطر المنحدرات ان حياة الانسان طريق لها مرتفاتها ووهادها وذوو العقول يتقدمون وايديهم على العنان . اما انا ايها الرئيس ، وهنا تكمن قيمتي ، فقد القيت بالعنان منذ زمن بعيد لان الصدمات لا تخيفني . اننا ندعو نحن العمال الخرج عن الخط الحديدي اصطداما ولتعلق مشنقتي ان كنت اعبر الصدمات التي اقوم بها انتباهها . ان لي في كل عرس قرصا وانا افعل ما يحلو لي ولا ابالي ، ان مت ما الذي اخشى عليه من الضياع) ان زوربا يطلب من نفسه التي يلقيها بالمجوز الاحساس المركز بالحياة (واستنشق حتى الاعماق) انه يلتهم الحياة وليس له مشكلة تمتص وجوده ضمنها وهو كبطلة قصة صورة سيدة لهتري جيمس وهي تدور حول فتاة تواجه الحياة بذلك السؤال الكبير ماذا افعل بحياتي ؟ ويدفع نجاحها الكبير في المجتمع الانكليزي احد الوردات الى طلب يدها فترفضه لانها تشعر بان امكانيات الحياة اوسع من ان تستحق التضييق الى هذا الحد . انها روح زورباوية ولا شك في نفس هذه الفتاة التمردة .

المباقرة يتلاقون على صعيد واحد فالحديث الذي روي عن علي ابن ابي طالب والذي يقول - رغم اعترافنا بالقصد الديني له - اعلم لديناك كانتك تعيش ابدا واعمل لآخرتك كانتك تموت غدا ، يأتي على لسان زوربا الذي يقول (انني اتصرف وكأنني ساموت في كل لحظة) كما ويأتي هذا المعنى كمقولة وجودية وهو (الوجود - من اجل - الموت) على لسان الفيلسوف الالمانى هيدجر ، ولماذا يحس زوربا بالموت الوجودي على هذه الطريقة ان لم يكن على شاكلتهم ؟ على ان احساس زوربا بالموت الوجودي لا يكون مأساويا كما هي الحال عند الوجوديين (انها الحياة ، ايها الرئيس ، الحياة الطيبة ، وما انا الا ان اتصرف وكأنني ساموت بعد دقيقة واحدة واسرع كي لا اموت قبل ان اكل الدجاجة) .

ان زوربا بطل معاصر له وجود كامن في نفسيات كثير من المثقفين الوجوديين وغير الوجوديين وهو كاوليس (الذي يعلم ان غاية الانسان هي الموت وان قيمة هذا الكائن انما تنبثق عن عديميته وبالتالي عن حرينه) . كما ان حكم زوربا على الاشياء يتبدى للقارئ الساذج انه اعتباطي وهو كذلك احيانا غير انه له عبق في اعتباطيته ، انه يقس وجود الاشياء بمنطق الديالكتيك المعاصر ويتخلص من المنطق العقلي المجرى ويعترف بمنطق الوجود والعدم الذي يقبل التناقض على انه شكل طبيعي من الحياة الشخصية ، وزوربا كما يقول مطاع صفدي عن البطل المعاصر (انه هكذا مشهود الى تمزقه دون اي طموح بعالم امثل فلقد أصبح هذا البطل اشد نماذج الابطال خلال المصور ياسا شيطانيا) . وليس زوربا انسانا برجوازيا يجلس هناك ليقوم الاشياء بكل انفة وليحكم على الموجودات بكل منطقية واحكام . انه خاض حروبا وخرج من هذه الحروب وفكرة الوطن قد تحولت بنظره الى اوهام وانانيات ، انه مثل بروست ولكنه لا يبحث عن ازمة ضائعة ، بروست يخرج من تجربة الحرب بوجهة نظر معاكسة تماما وهو اول روائي يواجه فعلا سيئس الانهيار المحترم الذي يلد المدمية الحديثة في التجربة المشبية كما يقول مطاع صفدي . على ان بروست ينتهي الى التشاؤم ، لقد انتهى الى انه لا شيء البتة له معنى بينما ينتهي زوربا كازانتزكي الى الواقع الذي لا يحس له بمعنى خارج جماليته وان كانت هناك لقطات غصبية قد تناقض هذا الحكم فذلك نتيجة اتصال الوجودية بالاعتباط عند زوربا .

واللقاء بين زوربا والوجودية يكسون كذلك فسي ارادة الاتصال والتماس مع براءة العالم ، فروكانتان سارتر يراقب العالم بدقة ولكن ببلاهة من نوع خاص (كان العالم الذي يتجلى بكل عريه دفعة واحدة وكنت اختلف غصبا ضد هذا الطفل الكبير اللامعقول) ثم يلاحظ روكانتان العالم من زاوية واحدة ويلاحظ صورا خاصة وهكذا يقرر كل شيء يبعث على الضجر . اما زوربا فانه يعتقد كل صباح مع العالم اتصالا جماليا (ما هذا ، هذه المعجزة ايها الرئيس هذا الازرق الذي يتحرك هناك كيف يدعى ؟ البحر ! وهذا الذي يرتدي مئزرا اخضر مزهرا الارض ! من هذا الفنان الذي صنعهما انني اقسام لك ايها الرئيس انها المرة الاولى التي ارى فيها هذا) الا يشبه هذا الاحساس احد ابطل سارتر بجذع الشجرة الثابت او ادراكه للكروسي الذي تآبي الكلمة ان تحط عليه ؟

ان لزوربا رؤياه الخاصة ونظرته الى العالم ، والحقيقة ان رؤياه اصدق من رؤيا كافة الكتاب الذين يحتمهم كولين ولسن . ان السؤال الذي طرحه اليوت في كورس الصخرة « اين هي الحياة التي اضعتها بالعيش ؟ » والتي اجاب ريلكه انها في الشعر ورامبو انها في الخيال المتناقض الذي عود نفسه عليه فكان يرى مسجدا في مكان كان فيه مصنع وملائكة يهربون الطبول . الخ بينما يرى كولين ولسن انها في رؤيا نيشه على قمة التل وحقل الحنطة الاخضر الذي رسمه فان كوخ وذكريات باسكال وطبق القهوة الذي عرفه بوهمه . وهذه الرؤيا حالة ذهنية ولحظات من البصيرة والادراك الرائعين اللذين يختفي فيهما هدف الحياة بل ان هذا - عند ولسن - هو بصورة نهائية الشيء الوحيد الذي

مؤلفات سيمون دو بوفوار

ق . ل

- المثقفون - رواية جزآن
- ١٤٠٠ ترجمة جورج طرايشي
- انا وسارتر والحياة
- ٤٠٠ ترجمة عابدة مطرجي ادريس
- مغامرة الانسان
- ١٥٠ ترجمة جورج طرايشي
- الوجودية وحكمة الشعوب
- ١٧٥ ترجمة جورج طرايشي
- نحو اخلاق وجودية
- ٢٢٥ ترجمة جورج طرايشي
- بريجيت باردو وآفة لوليتا
- ١٥٠
- قوة الاشياء - جزآن
- ١١٠٠ ترجمة عابدة مطرجي ادريس

منشورات دار الاداب

فاوست وزوربا :

وهكذا ينتهي زوربا الى حقيقة وجودية أكثر مما يجب فيستنتج أنه (لا يوجد شيء في الطبيعة ولا في الفكر لقد حررتنا هذه الحقيقة فلتفرص) .

ويتضح غنى شخصية زوربا في نهمه التي ألتهم .. النسي اخذ العالم في روجه ... اني ان يحرق ما فيد ضميره من وصايا وحكم (أنا سندباد بحري ، ليس لانني جيت العالم ، وانما لانني سرفت وفنات وكذبت ونمت مع مجموعة من النساء وانتهكت كل الوصايا . كم وصية هناك ؟ عشرة ! أه لو كانت هناك مئة كي انتهكها جميعا . ومع ذلك لو ان الله موجود لما حفت مطلقا ان امثل أمامه حين يجيء اليوم الموعد) انه يعيش الحياة وليست هي التي تعيشه . فقد يتبادر الى الذهن ان هذه الشخصية قد سمعها الحياة وحب اتحياة الا ان زوربا حين يلاحظ ان رغبة ما تسيطر عليه يسعى الى التخلص منها بكل قواه بل ان ابهامه يزعه مرة فيقطع وهو ليس عبد الرغبة (انا عندما أرغب في شيء مما آكل منه حتى انقز كني اخلص منه ولا افكر به مطلقا او افكر به باشمئز فمتدما كنت طفلا كنت مجنونا بالكرز ولم اكن اشبع منه لقله ما احصل ، وذات يوم غضبت او بالأحرى خجلت . لقد أحسست بأن الكرز يفعل بي ما يشاء ، وبأن هذا يجملني مضحكا ، فماذا فعلت ؟ اخلست من جيوب ابي مجيديه فضه وفي الصباح اشترت سلة كرز وجلست في حفرة واخذت بالاكل واكلت حتى انتفخت بطني ، وبعد فترة اخذت اتوجع وتقيأت ومنذ ذلك الحين انتهت قصة الكرز وفيما بعد فعلت الشيء نفسه مع الخمر والتبغ اني لا ازال ادخن وأشرب ولكن حينما اريد ان اكف اأف . ان الرغبة لم تعد مسيطرة علي) .

وحتى عند الموت فان زوربا لا يسلم روجه ببساطة ولا يضعف بل يريد ان يستعصي على آله الموت ويشور على تفنن الموت عليه بعد ان انتصر هو على الحياة (فقفز من السرير وذهب حتى النافذة وهناك تشبث بالفرجة ونظر بعيداً نحو الجبال ، وجحظت عيناه واخذ يضحك ثم يسهل كجواد وهكذا وهو واقف وأظافره مفروزة في النافذة اسلم الروح) وهكذا يبقى زوربا كاستورة ويذهب كحياة وكانما اراد كازانتزاي ان يشبه الحياة بزوربا .

ولو كان في ان أحدد رأس الكلمات واختصر وجود زوربا وحياته لما استطعت ان افول عنه أكثر من انه كان رجلا موجودا أكثر مما يجب ويحس بوجوده أكثر مما يحتاج ويكاد يلهم الحياة حبا وشبها ويمد الى اللذات والرغبات اصابع مغناطيسية أو كفسا اسفنجية تمتص اللذات امتصاصا وتحيا الحياة بعمق ، وزوربا موجود حاد متوتر يتسلط على الحياة ولا يدها نستعبده برغائبها ولذائنها وتوتمن للفيلسوف الفرنسي آرنست رينان قراءة هذه الرواية لا بدل فكرة مخادعة الطبيعة للانسان بسيطرة الانسان على الطبيعة فرينان يقول بان الطبيعة تستخدم الانسان في تحقيق رغائبها وحاجاتها للنمو والتطور فأوجدت فيه غرائز الجنس للمحافظة على النوع وهكذا ... فكان زوربا اذن انسان فسوف الانسان اي باصطلاح نيتشه سوبرمان . وتحقيقة ان في نفسية زوربا كثيرا من الروح النيتشوية ولا بد ان كازانتزاي قد تشرب آراء نيتشه حين ترجم هكذا نكلم زرادشت لليونانية . والحق ان زوربا احق من نيتشه بهذا القول (انا كاللهيب ، أحرق واكل نفسي ، ندر كل ما امسكه ورماد كل ما اتركه أجل اني لهيب حقا) .

سامي احمد الموصلي

الموصل (العراق)

بعض المصادر المعتمدة

تدهور الحضارة الغربية اشينجلر ص ٢٧٢

الفلسفة الوجودية جان فال ص ٧٨

القصة السيكلوجية ليون ايدل ص ٤٢

فاوست جيته ص ٥٢

الثوري والعربي الثوري مطاع صفدي ص ٢١١

ولو حاولنا ان نقارن بين فاوست جيته وزوربا لرأينا بينهما كثيرا من الشابه فزوربا لا يسعى لهدف يحققه ولا لغاية يطمحها . انه يعيش حياته لانه سخط في العالم ومفروض ، وحينما نسمع فاوست يقول (سعيد ذلك الفتى الذي قتل الليل ونفسه رقعا ثم خسر بين ذراعي غادة صريعا) ونسمع زوربا يصرخ (لا تصرخ ايها الرئيس اذا نامت امرأة لوهدها فهذه خطيئتنا نحن الرجال ، سنقدم جميعا الحساب) كما ان فاوست أيضا (لا يسعى لتحقيق غاية معينة ينهي عندها فالحياة عنده لم تكن اهدافا تحقق ونستقر عندها النفوس وانما هي تتمثل في المحاولة الدائبة التي نيس لها فرار ، الحياة عنده نجدد دائم وان شئنا الدفة تغير دائم) .

كما ان زوربا رجل بلا ايمان بلا اهداف بلا طريق محددة انسه يقذف بنشاطه هكذا اغتباطا . انه يحقق قول سارتر (ما دامت كل الدروب تقود الى اللامعن فانه لا يهم اي انطرق نخسار للفتي فيسه بنشاطنا وفمايلاننا) ولكن زوربا رغم ذلك ليس عيبيا او عديميا انه يتجسم المفامرة ويعيش التجربة بشيقية حادة وتل شيء عنده يستحق المفامرة . ان الحياة عنده كما هي عند فاوست صيرورة ودوران لا يكف وهو يرفض الالتزام بل يرى في فضية الالتزام من أي نوع كانت قضية فارغة بعد ان عاناها (تخلصت من الوطن ، تخلصت من الكاهن ، تخلصت من المال انني اغربل نفسي كلما تقدم بي العمر غربلت نفسي أكثر . انني أظهر ، كيف اقول لك انني اتحرر ، انني أصبح انسانا) . والشابه بين فاوست وزوربا لا يقف عند هذا الحد ، بل انه يتجاوز الى نظرة كل منهما الى الكتب ومقدار توصيلها للحقيقة . فبعد ان اتخم فاوست من القراءة عاد نادما وتعامل مع الشيطان في سبيل شبابه وافر بعدم وجدوى الكتب ، اما زوربا فانه يناقش هذه الحقيقة من خلال هذه المحاوره مع المعلم :

- هل يمكنك ان تقول لي ايها الرئيس ماذا تعني هذه الأشياء كلها ؟
من صنعها وبماذا صبغها ! وعلى الاخص لماذا نموت ؟
- لست ادري يا زوربا .
- لست تدري ! اذن فكل الكتب القدرة اني قرأتها ماذا تنفع ؟
وإذا كانت لا تجيب على هذا السؤال فماذا تقول اذن ؟
- انها تمنعني عن حيرة الانسان الذي لا يستطيع ان يجيب عما يسأل يا زوربا .

فصرخ زوربا غاضبا وهو يضرب برجله الارض :
- الى الشيطان بحيرتها . انا اريد ان تقول لي من اين تأتي والى اين تذهب ؟ لا بد انك بعد هذه السنوات الطويلة التي قضيتها وانت تستهلك نفسك في الكتب قد عصرت آلفين او ثلاثة الاف كيلو من الورك ، فاي شيء استخلص منها ؟

صدر حديثا :

النسار والطيرين

ديوان للشاعر :
راضي صدوق

منشورات دار الآداب

التمن ٢٠٠ ق.ل